ملامح مساهمة الطفل أثناء الثورة التحريرية في الخطاب السردي (المسرحية/ الرواية)

✍الباحثة بن عابد مختارية
جامعة وهران 1

1-تمهيد:

إن مفهوم الثورة عادة ما يعني « قيام شعب بحركة سياسية أو عسكرية أو هما معا، من أجل تغيير وضع راهن سيّئ، وإبداله بوضع جديد أفضل منه »[1]، فهذا المصطلح يحمل معنى الرفض منطلقا والحدة أسلوبا والتغيير الجذري الشمولي هدفا، ولذلك فإن النظرة الثورية هي التي ترمي إلى رفض الأوضاع من أساسها، وإلى مقاومة المستعمر، وتحقيق الاستقلال[2]، وهذا فعلا ما قام به الشعب الجزائري؛ إذ أن الحقيقة التي لا يمكن إغفالها أو إنكارها لأن التاريخ شاهد عليها، هي أن الثورة الجزائرية قد شهدت بطولات أبنائها الأفذاذ الذين صنعوا التاريخ بنضالهم وتضحياتهم من أجل القضية الوطنية، وصنعوا الحضور الجزائري الأصيل ضد الاحتلال الفرنسي الذي حاول وأد الجزائريين وطمس هُويتهم.

ودون أن نتعرّض إلى التفاصيل التاريخية التي اكتنفت قبل اندلاع الثورة التحريرية وبعدها تحاشيا الولوج في بعض الاستطرادات والتشبعات التي لا تفيدنا فيما نستهدفه من جوهر الموضوع، فإنه « إذا كان من الثابت أن أوّل من تلقّف مبادئ الثورة، وتبنّاها بإخلاص ولا تردد هي الطبقات المحرومة، فإن أكثر من في هذه الطبقات تحمّسا للثورة وتفاعلا معها هم شبابها، ومن هنا يمكن القول أن علاقة الشباب الجزائري بالثورة كانت علاقة جدلية؛ أي علاقة تأثير وتأثّر، وأخذ وعطاء»[3].

إلا أن الأمر الذي يلفت الانتباه هو أن رواة التاريخ والباحثين من أهل الاختصاص في دفاتر الأيام الغابرة كثيرا ما يقتصرون في رواياتهم وسجلاتهم، ويركّزون في سردهم على ملاحم وبطولات البالغين من الرجال والنساء الذين جاهدوا بالنفس والنّفيس، وصنعوا ثورة شعب فقه معنى التضحية، حتى جعلوها في مصاف الثورات الخالدة وسط قلاع المثالية عبر الزمن

القديم والحديث، لكن الحقيقة قليلة الذكر أن يكون من بين تلك القصص والمشاهد وصور أولئك الأبطال حكايا "أطفال وبنات صبايا " في عمر الزهور صنعوا تاريخا ملحميّا خاصّا بهم.

فقد ساهم الطفل الجزائري في الثورة الجزائرية على غرار بقية شرائح المجتمع، وكان يدرك منذ صغره حجم المعاناة التي يمر بها بنو جلدته بسبب سياسة الإدارة الاستعمارية التي كانت تمارس البطش والقتل والتهجير والتّعذيب بكل أنواعه، وتزج بالجزائريين في السجون، وكذا تجويعهم و « تفقيرهم ومصادرة أخصب أراضيهم الفلاحية عنوة أو بواسطة قوانين، ومنحها للمعمّرين الأوروبيين... فأصبح الجزائريون خمّاسين عندهم، غرباء في بلادهم لا يتمتعون بأبسط الحقوق »[4]، الأمر الذي دفعه للمشاركة في العمل الفدائي، متخليّا عن اللعب مع أقرانه، والتمتع بطفولته دون أدنى خوف مما سيتعرض له من القوات الفرنسية في حالة القبض عليه، وكم هم كثر الأطفال الذين شاركوا في النضال، وحملوا الثورة في حقائبهم المدرسية وقلوبهم البريئة، لكن للأسف ذكرهم نادر وحقهم مهضوم، وحتى الإبداعات الأدبية والفنية التي تبرز ما قدّموه من تضحيات، وتخلّد بطولتهم فهي تعد على الأصابع.

2- واقع الطفل العربي والثورة في المسرحية العربية:

إن الطفل الجزائري لم يكن الوحيد الذي شارك في ثورة بلاده ومقاوَمات شعبه، بل نجد أن معظم الأطفال في الوطن العربي الذين عايشوا ثورات بلدانهم التحررية قد ساهموا بطريقة أو بأخرى في تحريك العمل الثوري، وضحّوا ببراءتهم في سبيل أن تنعم بلدانهم بالحرية والاستقلال، وقد تجسدت هذه التضحيات والبطولات الطفولية في صنوف الإبداعات الفنية رغم قلتها، وهو ما نلحظه في المسرحيات التي استلهمت ثورة أطفال الحجارة بفلسطين، كمسرحية: (إحنا أولاد المخيّم)[5] مثلا -وهي من تأليف وإخراج "د. عبد الفتّاح أبو سرور" مدير مركز الروّاد للثقافة والتدريب المسرحي بمخيم عايدة، بيت لحم بفلسطين -، هذه المسرحية هي تعبير صادق عن مأساة أطفال المخيّمات الفلسطينية، حيث يبرُز الطفل فيها ضحية للاستعمار من جهة، وصانعا للثورة من جهة أخرى، فقد قسم الكاتب مسرحيته إلى إحدى عشر مشهدا، صوّر عبر مسارها تاريخ فلسطين المغتصبة منذ وعد "بلفور" المشؤوم، ثم النزوح من حرب 1948، واستقرار الهاربين في مخيم، كما حاول تقديم الأسماء الأصلية للأماكن على لسان الشّخصيات، وكيف تمت تسميتها بأسماء إسرائيلية جديدة مثل: (عسقلان) صارت (أشكلون)، وقرية (البروة) صارت (أحيهود) وغيرها، والأهم أن هذه المسرحية ركّزت أيضا على حياة الأطفال في المخيم مشرّدين مبعدين، محرومين من المدرسة،

وصوّرت اصطدام أحلامهم بالواقع المر؛ إذ يفرض عليهم الصراع دخول الحرب بالحجارة، فيقولون:

الجميع: إحنا جيل الانتفاضة

رضعنا الحرية مع الحجارة

هوانا كان قنابل غاز مسيل للدموع

وعطرنا كان دخان ونار الإطارات المحروقة

الجميع: إحنا جيل الانتفاضة. [6]

كذلك تُبرز المسرحية في المشهد السادس الموسوم بـ "المواجهة" عنجهية الجنود الإسرائيليين في قمع انتفاضة الأطفال، فيسقطون برصاص الصهاينة، ومع ذلك يتمسّكون بأرضهم.

3-أسباب عدم الاهتمام بالطفولة في المسرح العربي:

على الرغم من أهميّة هذا الموضوع أي موضوع الطفل والثورة، سواء في حضوره الواقعي المأساوي أو في بعده الإنساني، بحكم أن معظم البلدان العربية قد شهدت حروبا وثورات تحررية ضد الاستعمار الخارجي، كما عانت من الحروب الأهلية، إلا أن الاهتمام بهذا الموضوع في الإبداع المسرحي ظل ضعيفا، وذلك ربما يعود إلى « حداثة نشأة المسرح العربي سنة 1848م على يد "مارون النقاش" من جهة، وتأخر اهتمام المسرحيين العرب بالطفولة عموما سواء في مسرح الكبار أو في مسرح الأطفال » [7].

كما يشير الكاتب "حمدي الجابري" في كتابه: (مسرح الطفل في الوطن العربي) إلى تأخر ظهور هذا المسرح العربي حتى سنة 1964 في مصر، وسنة 1970 في الجزائر والعراق قبل أن يشمل باقي البلدان العربية، وهو مسرح يفتقر في العموم للمعنى والدلالة، لأنه مقيد بالتوجهات السياسية للأحزاب الحاكمة، وهذا ما يطرح إشكالية المسرح وحرية التعبير في الوطن العربي[8].

4-صورة الطفل الجزائري أثناء الثورة في العمل المسرحي:

لقد مر المسرح الجزائري بعدة مراحل[9] من بينها: مرحلة الثورة؛ ففي هذه الفترة «لعبت الفرق المسرحية دورا كبيرا في ميدان التوعية السياسية بالنسبة للجماهير الشعبية»[10]، وكانت مسرحيات هذه المرحلة تعالج بعض القضايا ذات الصلة الوثيقة بالحياة اليومية، وباهتمامات الشعب كمسألة الاستعمار، وكيف يمكن التخلص منه[11].

وعموما، فإن المسرح الجزائري قد جسّد أيضا واقع الطفولة أثناء الثورة، كمسرحية: (أم الشهداء)[12] للأديب الجزائري "عز الدين جلاوجي"، وهي مسرحية تتعرض لأحداث الثورة التحريرية، مركزة على دور المرأة العظيم فيها أمّاً وزوجة وأختا، ومجاهدة مع أخيها الرجل، وإذا كان بطل القصة (أحمد الأب) قد أُرغم على حمل السلاح دفاعا عن وطنه كما أرغم الملايين من أبناء شعبه، ويسقط شهيدا، فإن ابنه الصغير يوجه إلى الكُتّاب لتلقّي العلم، ليبقى استمرارا للحياة، واستمرارا لثورة البناء، مما يعني أن الثورة هدفها الحياة.

كما يلاحظ في العديد من مشاهد هذه المسرحية تصوير الوضع الاجتماعي والإنساني الصعب الذي عاشته شريحة الأطفال، إلا أن هذا الأمر لم يمنع من أن تكون الطفولة بصيصَ الأمل ورهان المستقبل بالنسبة للشعوب المستعمرة لمواصلة التحدي، ومركزَ تهديد بالنسبة للاستعمار، وهو ما يتجلى في الحوار التالي:

الأم: عليك اللعنة أيها الوغد، تستأسد على النساء والعجائز (تمزّقه وهي تضمّ حفيدها).

الضابط: (يجذب الطفل) وهذا الطفل قاطع طريق صغير هو ابن أحمد، أليس كذلك؟

الأم: (تحضنه إليها) دعه لا شأن لك بالأطفال، شأنك مع الرجال إن كنت رجلا.

الضابط: أخبري أحمد والصادق وكل اللصوص أننا وراءهم كالقضاء المحتوم.

الأم: حين تقتلون الكبار سيكبر الصغار كالقضاء المقدر.

الضابط : الزمان بيننا.

الأم : الزمان بيننا.

(ينصرف الضابط، وتبقى الأم تضم حفيدها إلى صدرها).

وقد تأثر بعض الأدباء في الوطن العربي بالثورة الجزائرية ومقاومات شعبها، والدَّور الفعال الذي لعبه الطفل الجزائري فيها، فقاموا بترجمة ذلك التأثر في إبداعاتهم، نذكر على سبيل المثال لا الحصر مسرحية: (مأساة جميلة) [13] للكاتب المصري "عبد الرحمن الشرقاوي"، وهي مسرحية من الشعر الحر، تقع في حوالي 240 صفحة من الحجم المتوسط، وتتألف من خمسة فصول مقسمة إلى مناظر متفاوتة، كتبت ونشرت نصا عام 1961، قبل أن يتم عرضها من قبل فرقة المسرح القومي المصري في موسم 1962، وهي من إخراج الفنان "حمدي غيث"، حيث كتبت خصيصا من أجل تمجيد الثورة الجزائرية، وهي « تصور مأساة البطلة الجزائرية

"جميلة بوحيرد". وتروي كيف اعتقلها الفرنسيون بعد أن أمسكوا بها، وهي تشترك اشتراكا فعليا في النضال الجزائري المسلح »[14].

في هذه المسرحية نجد شخصية الطفل (سرحان) الذي يمثل مشاركة شريحة الأطفال في الثورة التحريرية، إنه أخو البطلة (جميلة بوحريد)، كان يتولى أحيانا حراسة الطريق من الشّرفة، ليؤمّن المكان للمجاهدين حتى لا تفاجئهم قوات الاحتلال، وهو يُظهر من الحمية والأَنَفة ما يجعله يستلّ سكينا يهاجم به القائد العسكري الفرنسي (بيير) ليمنعه من التحرّش بأخته (جميلة)، الموقف الذي أثار القائد (جاسر) فوصفه بعبارة « سرحان البطل »[15]، ولقد كان موقف استشهاد هذا الطفل بطلقات رصاص من أحد ضباط الاحتلال في ليلة المذبحة دليلا آخر على وحشية الاستعمار وجبروته؛ إذ أنه لا يرحم أحدا حتى الأطفال الصغار، فقد خرج (سرحان) صارخا مقتل عمه (مصطفى)، فلقي المصير نفسه، وكأنه مجرّد فأر صغير كما وصفه قاتله:

سرحان: عماه.... عمي

ضابط: (يطلق النار على سرحان) يا أيها الفأر الصغير! [16].

إن شخصية (سرحان) هي نموذج لمشاركة الأطفال الجزائريين في الحرب التحريرية، وما لقيه هؤلاء الأطفال من معاناة بعد استشهاد آبائهم، حيث عاشوا يتامى، كما دفعوا من أرواحهم تضحيات جسيمة فداء لحرية الوطن وعزّته وكرامته.

فمثل هذه الأعمال صوّرت الطفل الجزائري رمزا للمقاومة، وبطلا مشاركا في هذه الثورة بكل بسالة وشجاعة، ومناضلا بكل الوسائل الممكنة كنقل الرسائل، وإخفاء السلاح، والتجسّس على الفرق الاستعمارية المتنقلة بين الأحياء، والإبلاغ عن العملاء، وإيصال المؤونة للمجاهدين، وغيرها...، هي أعمال رغم بساطتها إلا أن وزنها كان كبيرا خلال الحقبة الاستعمارية، وأسهمت إلى حد كبير في إنجاح العديد من العمليات الفدائية، كانت مهمات صعبة ألقيت على عاتق أطفال أدركوا منذ صغرهم أهمية أن يكون لديهم وطن مستقل، فتخلّوا عن أحلامهم، ورسموا لأنفسهم طريقا واحدا، ألا وهو مساعدة الفدائيين من أجل أن تحيا الجزائر حرة، ويعيشوا عهد الاستقلال، عهدا كان يبدو كالحلم، إلا أنه لم يكن مستحيلا.

ولعل أبرز نموذج عن الأطفال صانعي الثورة التحريرية: "عمر ياسف" المدعو "عمر الصغير" أو "petit omar" الذي مثلت قصته في مسرحية بعنوان: « بوتي عمر... ثورة البراءة » أنتجتها الجمعية المسرحية "أشبال عين بنيان" بمساهمة المسرح الوطني، وأخرجها "محمد عباس

إسلام"، وكتب نصّها المؤلف "حسين طايلب"، حيث استُقيت أحداث هذه المسرحية من واقع الثورة التحريرية، بالضبط من معركة الجزائر العاصمة الشهيرة، التي خلّدها فيلم بالعنوان نفسه لـ "ياسف سعدي"، أخرجه الايطالي "جيلو بورتكورفو"[17].

فالمسرحية هي بورتري للطفل "عمرياسف" أو"عمر الصغير"، واستقراء لسيرته الذاتية، حيث شارك في النضال، وانخرط في عمليات كبرى مع الفدائيين بالقصبة، ورغم حداثة سنّه، فقد شارك بقوة وإيمان حتى استشهد دفاعا عن وطنه في سن الزهور رفقة البطلين "حسيبة بن بوعلي" و"علي لابوانت".

كما دارت أحداث العرض المسرحي حول حياة ومحيط الطفل "عمر"، الذي تربّى وسط أسرة متشبعة بمبادئ الثورة والعمل السياسي حتى قبل اندلاع الثورة المسلحة، وكيف ساهم هذا المحيط الأسري، وأيضا خصوصيات حي «القصبة» العتيق (قلعة الثوار) في إيقاظ الحسّ الثوري لدى طفل اغتُصبت منه البراءة بفعل طغيان وبطش المستعمر.

وعلى مدى 55 دقيقة من الزمن، يسلّط هذا العمل الأضواء على المسيرة البطولية لهذا الطفل الذي أبدى في سن مبكرة وعيا بوضعية وطنه المستعمَر، وبمختلف الفوارق التي كانت سائدة بين الجزائريين وأبناء المستعمِر بدءا من المدرسة، وقد استطاع المخرج أن ينقل ذلك الحماس والشجاعة الذيْن تميّز بهما "عمر" الذي يصفه قائلا: «... إنه "بوتي عمر" الذي فجّر ثورة البراءة ضد المسخ الاستعماري، ولا يزال نابضا في قلوبنا »، ويشرح رئيس (جمعية أشبال عين البنيان) "مصطفى علوان" مجمل العرض قائلا: « ارتأينا السفر في دروب الماضي، لنتلمس أحد رموز المقاومة في مسار ثورة التحرير الخالد، إنه "بوتي عمر" الذي يعدّ نموذجا للأطفال من ذهب.. تحدوا الواقع رغم الويلات »، كما قال الكاتب "حسين طايلب" في هذا الخصوص: « هي مسرحية لرجل كبير رغم أن "عمر ياسف" طفل صغير..، حاولنا إماطة اللثام عن سير الأبطال الذين صنعوا نفس الملامح رغم أنهم أطفال، و"بوتي عمر" كما كان يُلقّب في عمله الثوري، كبير بالمعنى التاريخي للكلمة »[18].

لقد نجح المخرج في اختيار موضوع مساهمة الأطفال في الثورة التحريرية من خلال "عمر"، الذي تختزل قصته براءة كل الأطفال الذين حرمتهم ويلات الحرب، وهمجية الاستعمار من عيش تلك المرحلة الجميلة من عمر الإنسان.

ولقد أنجزت الإعلامية والمنتجة "نسيمة عبد الرحمان" عملا ملحميا حول موضوع مساهمة الطفل الجزائري في ثورة التحرير، والمِهن التي اشتغل بها إبان الاستعمار، كتكريم لفئة الأطفال

المجاهدين الذين ساهموا في الثورة التحريرية المجيدة، حيث تمثّل هذا العمل في مسرحية بعنوان: "الطفل الذاكرة والأمل"، والتي تطرّقتْ فيها إلى دراسة مميزات حياة أطفال حقبة الاستعمار، للفت انتباه الجزائريين جميعا لفئة همّشها التاريخ، ولم تنصفها الأعمال التاريخية كما ينبغي[19].

كما تحدّثت عن خلوّ الأعمال المنجزة بمناسبة خمسينية الاستقلال من مواضيع تشير إلى نضال الطفل، بالرغم من أنه حلقة الوصل بين الماضي والمستقبل، مؤكدة على وجوب التفكير في الطفل والاهتمام به؛ لأنه حامي الذاكرة، وهو الذي سيغدو يوما شابا يبني الجزائر، ومشيرة إلى أن الوقت قد حان للحديث عن الواقع الذي يحمي بلادنا ومستقبل الوطن، رافضة طريقة التعامل مع الطفل من خلال عروض البهلوان والساحر؛ لأن الطفل أذكى من أن يُعامل بتلك الطريقة.

وللإشارة فإن "نسيمة عبد الرحمان" قد كتبت نص هذا المشروع بالتعاون مع الشاعر الشعبي "ياسين أوعابد" في نظم قصائد الأغاني، حيث يقوم الأطفال بأداء أدوار عمّال المهن التي شارك بها الأطفال إبان الاستعمار من ماسح الأحذية، والحمال، وبائع الجرائد، والفلاح... وغيرها، كما تدعِّم المسرحية بأرشيف للأفلام التي تحدثت عن هؤلاء، مثل فيلم (أطفال نوفمبر) لموسى حداد، إضافة إلى صور للأطفال من الأرشيف، كذلك يعتمد العمل على إعادة أغاني معروفة مثل: أغنية (يا محمد) و(يا ناس أماهو) للمغنية "نورة".

5-صورة الطفل الجزائري أثناء الثورة في العمل الروائي:

فكما جسّدت المسرحية صورة الطفل الجزائري الذي ساهم في العمل الثوري، كان للرواية أيضا نصيب في إبراز هذا الدور الكبير الذي لعبه الطفل الجزائري في الثورة التحريرية، إذ أن قصة "عمر ياسف" أو "عمر الصغير" التي تحدثنا عنها سابقا قد ألهمت العديد من الأدباء والكتّاب، منهم الكاتبة الجزائرية "سهيلة عميرات" التي ألّفت رواية بعنوان "P'TIT OMAR, LA RÉVOLUTION DANS LE CARTABLE"[20]، والتي صدرت في نسختها الأصلية (بالفرنسية) بمناسبة خمسينية الاستقلال، حيث أرادت الكاتبة من خلالها أن تعود إلى ملحمة هذا البطل الذي لم يكن أبدا صغيرا، فهي من قريبات الشهيد "عمر ياسف" (ابنة خالته) تأثّرت كغيرها بقصته، واحتفظت في ذهنها ببعض التفاصيل المهمة عن مغامرته، وعند وفاة والدة "عمر" السيدة "ذهبية ياسف" سنة 2007، قررتْ تدوين هذه الذاكرة لتخلّد بها ذكراه، وتُعرِّف به أكثر بين الشباب[21].

وقام "مراد وزناجي" بترجمة هذه الرواية في 169 صفحة، وهي رواية تتحدث عن ابن القصبة الذي يُفتخر بشجاعته التي قلّ نظيرها في زماننا، حيث استهلت الروائية مؤلّفها بالاستشهاد بمقولة "بول فاليري": (الذاكرة هي مستقبل الماضي)، وأشاد المترجم "مراد وزناجي" في مقدمته بشجاعة وتضحية "عمر ياسف" قائلا: « يشكّل الشهيد عمر الصغير المعروف بـ "P'TIT OMAR" (1957/10/08-1944/01/07)، أروع مثال في التضحية والإقدام بالنسبة لمشاركة الطفل الجزائري في ثورة التحرير الكبرى (1954-1962)، ليس لأنه لم يكن قد بلغ آنذاك مرحلة النضج فحسب، بل كذلك باعتباره شاهدا وفاعلا في ذات الآن، شاهدا على مرحلة حاسمة في تاريخ الحركة الثورية الجزائرية أثناء الفترة الاستعمارية بعاصمة البلاد، وفاعلا نشيطا في تلك الملحمة الحقيقية التي سُمّيت "معركة الجزائر"، والتي احتضن مآثرها حي القصبة، الذي يعتبر روح العاصميين، وضمير الجزائريين على حدّ سواء»[22].

وأضاف: «أنّ المهمة لم تكن سهلة بالنسبة لـ "عمر الصغير" نظرا لحجم المسؤولية الملقاة على عاتقه، حيث كان يتوجّب عليه بادئ ذي بدء، التجرّد من ثوب (الطفولة) وارتداء لباس (الرجولة) من أجل أداء مهمة شاقة ممنوعة عن بقية الأطفال، مهمة تنازل لأجلها أيضا عن الذهاب إلى المدرسة. إن الإرادة، والتحدي، والذكاء، والشجاعة، والتضحية، ونكران الذات، وقوة التحمل، والصبر على المكاره، والإيمان بالله، وحب الوطن، والاعتقاد بعدالة القضية، والتحلي باليقظة، وفهم الواقع، وحسن التدبير، صفات من بين أخرى، اجتمعت في قلب وعقل وجوارح هذا الطفل كلّها، فلولاها ما كان للبطل عمر أن ينجز ما أنجزه، ولولا قصته "الواقعية" ما كان لهذا الكتاب أن يرى النور »[23].

وقد احتكّ هذا الطفل الذي أنجبته القصبة بكبار الأسماء التاريخية، وعمل معها عن كثب، ونفّذ أوامرها وهو لم يتجاوز سن الثالثة عشرة، حيث يستعرض الكتاب مسيرة أشخاص كانوا على علاقة وطيدة بعمر، منهم خاله "ياسف سعدي" الذي كان يكنى بـ"الأخ الأكبر" وظروف اعتقاله التي آلمته كثيرا، وكذا نضال عائلته وبعض المناضلين خاصة الذين استشهد معهم، وهم: "العربي بن مهيدي" "علي لابوانت" و"حسيبة بن بوعلي" و"محمود بوحاميدي"، حتى أنّ أحد القادة العسكريين الفرنسيين في الجزائر قال بهذا الخصوص: « إنّ الإمساك بهذا الطفل سيسمح لنا بإلقاء القبض على بقية عناصر الفوج »[24].

تحوّل "عمر" بعد انتصار الثورة الجزائرية، إلى رمز لتضحيات أطفال الجزائر، فهو أصغر فدائي في الثورة دخل عالم النضال وسنه لم يتجاوز التاسعة من عمره، عندما رافق والده العضو

في حزب الشعب إلى الاجتماعات السرية، وكان يستمتع بذلك كثيرا، إذ كان يلتزم الهدوء تماما كالمناضلين الكبار، ويصغي لأحاديثهم وينجذب لخطبهم، على الرغم من أنه لم يكن يفهم كثيرا مما يقولونه، وكان يحلم بأن تندحر فرنسا الاستعمارية وكفى.

كما صبر على عدم رؤية أمه وأبيه وإخوته وأخواته وجده وجدته لأشهر عديدة، بعد أن شغله عنهم العمل الفدائي، وتخلى أيضا عن ألعابه المفضّلة مع أصدقائه، فهذا الطفل لم يرهب اقتحام المظليين لمنازل وسطوح القصبة، وحمل الرسائل بأمانة وشجاعة في محفظته، وخطف المكروفون خفية لمخاطبة الجزائريين أثناء إضراب الثمانية أيام للرفع من معنوياتهم، كما اجتاز الحواجز الأمنية الموجودة بالقصبة، وكم من مرة سار في أزقتها والفدائيون يمشون وراءه، وقد استأمنوه على مصيرهم.

هذا، وتسرد لنا الرواية تفاصيل القصة التي تهزّ أيّ قارئ إلى أن تصل إلى اليوم المشهود، وهو تفجير المخبأ الذي لجأ إليه "عمر" بعد محاصرة القصبة وسدّ منافذها، والانتظار أمام شارع "أبديرام"، وكانت الأم غير بعيدة تتألم، وتدرك بأنّها الجولة الأخيرة مع "عمر"، راغبة في خطفه من مخالب العدو وحضنه إليها، وتصرخ لتقول بأنّ ابنها مجرد طفل صغير، لكنها كانت تدرك جيدا أن ذلك لن يعني شيئا للمظليين[25].

هكذا استشهد الطفل المناضل "عمر ياسف"، وسيظل اسمه خالدا مع أسماء شهداء الوطن، شأنه شأن باقي أطفال الجزائر، حيث يروي لنا الكاتب "محمد صالح الصديق" بطولة طفل جزائري آخر أثناء الثورة قائلا: « فعندما انفجرت قنبلة زمنية في متجر بنهج إيزلي في شهر أكتوبر 1959، هجمت فرقة من جنود المظلات على حي القصبة، وراحت تعتدي على الجزائريين بالضرب، وعلى متاجرهم بالتحطيم والنهب، فاندلع أبناء القصبة أمام هذا الاعتداء في شجاعة وقوة، فكالوا الكلمات لجنود المظلات، ولم تكتفي بنات القصبة بالتفرج على هذا المشهد الرائع، بل أخذن يقذفن الجنود بالأحجار وقِطَع الأثاث..، أما طفل صغير لا يتجاوز العاشرة من عمره فإنه انقض على جندي فرنسي... وحاول أن يفْتَكَّ منه سلاحه بلا خوف أو رهبة، ولكن أحد الجنود صوّب إليه رشاشة فأرداه قتيلا...»[26].

فهذه النصوص قد جسدت الطفل الجزائري مناضلا في الثورة، إلا أن هناك نصوصا أخرى أبرزت معاناته خلالها، وكيف كان ضحية لها، فالثورة الجزائرية لم تقتصر فقط على الرجال والنساء والأطفال داخل البلاد، بل شملت أيضا الأطفال الذين وجدو أنفسهم كلاجئين على الحدود الغربية والشرقية للبلاد هربا من بطش الاستعمار، وهو ما تصوّره لنا قصص (أطفال

الحدود) لـ"عبد الرحمن ناصر"[27]، وهي عرض حال لتجربة رجل مرّ به سجل في زمن التوتر والاجتثات، هذا الرجل هو مؤلّف الكتاب، حيث يقول في مقدمته: « عند ذهابي لإغاثة ضحايا الطيران الفرنسي لقرية ساقية سيدي يوسف التونسية الواقعة على الحدود، اكتشفتُ فعل القنابل والرشاشات... واللاجئين الجزائريين »[28]، ويضيف واصفا الوضع المأسوي الذي خلّفته فرنسا قائلا: « ... وهكذا دمرت وبكلّ بساطة المداشر، وهجر سكانها نحو المحتشدات أسماها منشؤها بمراكز التَجَمُّع، وفرّ آلاف الجزائريين نحو المغرب وتونس، وخلال هذه الهجرة تشتتْ العائلات، واجتاز مئات الأطفال بمفردهم الحدود... لقد أقام هؤلاء الشيوخ والنساء والأطفال المرهقون والمرضى والجياع على مقربة من الشريط الحدودي، وبنى كل من استطاع مأوى مؤقت بالحجارة والأغصان... كان الأطفال يسدُّون رمقهم بالتراب في المناطق الجرداء التي عاف حتى العليق أن ينبت فيها، ومن أبقى عليه الجوع لم يسلم من المرض »[29].

مع كلّ هذه المعاناة، كيف للأطفال آنذاك أن يتمتعوا بطفولتهم وبراءتهم، وأن يعيشوا حياتهم الطبيعية، فقد اعترف كل علماء النفس بأن « الخاصيات الرئيسة للشخصية تنمو في سن اليفاعة، وأولاد اللاجئين المحرومين لم يتمكنوا من الاندماج، ولم يستطيعوا التكيف مع أي نوع من الحياة الاجتماعية، ولم يستفيدوا من طفولتهم نظرا لتأثرهم بالمأساة الجزائرية التي تولّد عنها انحراف اجتماعي للمستقبل. إن العالم الهامشي الذي ترعرعوا فيه وعاشوه، جعلهم يتساءلون عما سيحدث لهم بعد الاستقلال، ولا يحلمون إلا بإرضاء حاجاتهم البسيطة والعاجلة، والنجاة من الأخطار التي تحدّق بهم »[30].

خاتمة:

وفي الختام، لابد من القول بأننا في حاجة ماسة إلى مثل هذه الأعمال الأدبية، والتجارب الفنية التي تبرز مساهمة الطفل الجزائري خلال الثورة التحريرية، فهي أعمال تخلّد ذكرانا، وتصنع مجدنا، وتساهم في نشر الثقافة التاريخية وسط أبنائنا بأسلوب يقرّبهم من الماضي ولا يبعدهم عنه، وهي بمثابة وسائل فعالة تحبّب الشباب في دراسة تاريخهم والاطلاع عليه.

أما المسرح الجزائري فمازال يتلمس طريقه في زحام عدة إشكاليات تواجهه وتحول دون تطوره، وأخذ مكانته في المشهد الأمامي للثقافة والإبداع الفني، ولم يولّ الاهتمام اللازم لموضوع الطفل والثورة، إن هي إلا محاولات محتشمة في حاجة إلى دعم وتشجيع، ولذلك ندعو إلى منح هذا الموضوع القدر الذي يستحقه من الاهتمام في إبداعاتنا الفنية والأدبية.

الاحالات:

1. مرتاض عبد المالك، دليل مصطلحات ثورة التحرير الجزائرية 1954-1962، (الجزائر، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة نوفمبر 1954، المطبعة الحديثة للفنون المطبعية)، ص 24.
2. ينظر: الشيخ صالح يحي، شعر الثورة عند مفدي زكريا: دراسة فنية تحليلية، ط1، (الجزائر، قسنطينة، مطبعة البعث، 1987)، ص 55 -56.
3. زهرة ديك، الحرب التحريرية: رصدتها شخصيات تاريخية ونضالية، (الجزائر، عين مليلة، دار الهدى، 2012)، ص 233.
4. عمورة عمار، موجز في تاريخ الجزائر، ط1، (الجزائر، دار ريحانة، 2002)، ص 118.
5. ينظر: عبد الفتاح أبو سرور، مسرحية إحنا أولاد المخيم، الموقع الإلكتروني جمعية مركز الرواد للثقافة والمسرح alrowwad.virtualactivism.net/.../playsandpoems/Arabicplay.doc ، بتاريخ 2010/06/24
6. عبد الفتاح أبو سرور، المصدر نفسه، ص 10.
7. أحسن ثليلاني، تيمة الطفل والحرب في المسرح العربي، مجلة مقاليد في اللغة والأدب، جامعة قاصدي مرباح ورقلة الجزائر، ع 03، 2012، ص 02.
8. المصدر نفسه، ص 03، نقلا عن: حمدي الجابري، مسرح الطفل في الوطن العربي، (مصر، منشورات مكتبة الأسرة، 2002).
9. ينظر: زهرة ديك، الحرب التحريرية: رصدتها شخصيات تاريخية ونضالية، (الجزائر، عين مليلة، دار الهدى، 2012)، ص277 -287.
10. المصدر نفسه، ص 281.
11. ينظر: المصدر نفسه، ص283.
12. عز الدين جلاوجي، أم الشهداء، (الجزائر، دار هومة للنشر والتوزيع).
13. الشرقاوي عبد الرحمن، مأساة جميلة، ثورة الجزائر في إبداع شعراء مصر، إعداد: فتح الباب حسن، ط1، (منشورات مؤسسة مفدي زكرياء، الدار المصرية اللبنانية، 2005).
14. النقاش رجاء، في أضواء المسرح، (مصر، دار المعارف 1965)، ص 144.
15. الشرقاوي عبد الرحمن، مأساة جميلة، ص 407.
16. المصدر نفسه، ص 413.
17. جريدة صوت الأحرار، تفاعل الجمهور مع مسرحية "بوتي عمر..ثورة البراءة"، بقلم: ق. ث، بتاريخ: 2013/06/28، http://www.sawt-alahrar.net/
18. جريدة البلاد، مسرحية "بوتي عمر": عباس إسلام يسترجع ذكريات ثورة أطفال الجزائر ضد الاحتلال الفرنسي، بقلم: حسناء شعير، بتاريخ: 2013/06/25، http://www.elbilad.net

19. جريدة الفجر، نسيمة عبد الرحمن تطلق العمل الملحمي "الطفل الذاكرة والأمل"، بقلم: حنان بوخلالة، بتاريخ: 2013/03/22، http://www.al-fadjr.com/

20. P'tit Omar, La Révolution dans le cartable de Souhila Amirat, Édition À Compte d'Auteur, Alger, 2012.

21. ينظر: رواية عمر الصغير، سهيلة عميرات، ترجمة مراد وزناجي، (الجزائر، عين مليلة، دار الهدى، 2012)، المقدمة.

22. المصدر نفسه، المقدمة.

23. المصدر نفسه، المقدمة.

24. ينظر: المصدر نفسه، المقدمة، ص146، 161.

25. ينظر: المصدر نفسه، ص 152-160.

26. محمد صالح الصديق، الجزائر بلد التحدي والصمود، (الجزائر، موفم للنشر، 2009)، ص 148.

27. هو مجاهد من مواليد الجزائر العاصمة، ، وكان مربّيا متخصصا، وهو من الأوائل من اهتموا بفئة الأطفال بعد الاستقلال، حيث قام بتأسيس جمعية "الجيل الجديد"، وإنشاء مركز خاص لإيواء أبناء الشهداء رفقة المجاهدة جميلة بوحيرد.

28. عبد الرحمن ناصر، أطفال الحدود (قصص)، (الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1989)، ص 05.

29. المصدر نفسه، ص 05-06.

30. فاروق بن عطية، الأعمال الإنسانية أثناء حرب التحرير 1945- 1962، (الجزائر، مشورات دحلب، 2010)، ص 135.